يروج بعدها فى الأسماع والقلوب ، ويتمكن من مشاعر الناس ، ويسير فيها فى يسر ولذة لا تتاحان للتاريخ والمنطق والفلسفة .

وقد كان همّ المادحين فى أكثر مدائحهم للرؤساء والحكام أن يجسّموا الصفات الطيبة والمزايا الرفيعة والأخلاق السامية ، أو أن يخترعوها ويلصقوها بالممدوحين ليربحوا فى حلبة المديح ، وليرفعوا لواء الممدوح بين الناس ، فلعلهم فى ذلك كالصحافة الحزبية لعصرنا ، ترى الخير كل الخير عند زعمائها ورؤسائها وقادتها ؛ أو لعلهم كالرسامين المصورين يستطيعون أن يظهروا أجمل ما فى الوجوه وأحسن ما فى المشاهد ، فيصورون من جانب واحد ، هو جانب الجمال والحسن ، ويخفون المعالم الأخرى بريشة بارعة تصحح وتلون وتبدع ، وتسلط الأنوار والظلال ، وتتلاعب بها ؛ فالمدح فى هذا على عكس الهجاء .

وقد استعرضنا ما كان للعرب فى هذا الباب فرأيناه كثيراً ضخماً منذ الجاهلية حتى اليوم ، يشكل ديواناً كبيراً وجزءاً خطيراً من أدبنا ، يحتلّ موقعاً هامّاً ، لأنه يُعنى ، فيما يعنى به ، بوصف الرجال وامتداح مزاياهم ، والتحبب إليهم والتقرب إلى مقامهم بأحسن أسلوب وأبرع صورة .

والمدح كثير الأنواع لا يكاد يحصره تقسيم أو تبويب ، ولا يوفيه كتاب صغير ؛ ولكننا ننشئ للشادين ، فنكتفى بغيض من فيض ؛ ونعرض منه نماذج فى مديح الخلفاء والملوك ، ومن أعانهم من أمراء ووزراء ، وقواد ووجهاء ، ومن لمع فى الأقطار من علماء وأدباء ، وما كان من المديح الدينى ، والإشادة بفضائل النبى الكريم ، والثناء على أهل بيته والدعوة لهم فى الخلافة والحكم ، وما وقع فى مديح الأوطان والبلدان والمديح السياسى عامة ، لعلنا نتعرف إلى المثل العليا التى كان يعجب بها شعراؤنا على اختلاف العصور والأوطان .

ونحن لا ندعى الإحاطة والشمول ، فإنها محاولة أولية فى باب جديد من أبواب التصنيف والتأليف ، جعلناه فى صفحات يسيرة وأسلوب مبسّط ، ليكون قريباً من الأذهان لطيف المتناول ، نافعاً على إيجازه . والله من وراء القصد

سامى الدهان